نحن والمستشرقون

رد على الدكتور مبارك

للدكتور حسين الهراوى

علق الأستاذ الدكتور زكى مبارك على ما كتبناه عن المستشرقين وأثرهم فى البحث الاسلامى والاجتماعى عن الشرق(١) ، ورأينا فيهم أنهم ما تخصصوا فى العلوم الاسلامية والمباحث اللغوية العربية إلا لغزوة العقل الشرقى وإخضاعه واستعباده للعقل الأوربى حتى رأينا أن نهضتنا الأدبية والاجتماعية لاتتجه إلى غرض منتج ، كأن يكون لنا شخصية وطابع شرقى يتفق مع ديننا وأدبنا وعاداتنا وقوميتنا .

ولقد استهل الدكتور مبارك عرضه لما كتبنا بجملة تنم على وفائه لأساتذته منهم ، وأنه يحفظ لهم فى نفسه احترام الطالب للاستاذ .

وإنا نحمد له وفاءه واعترافه فى مستهل حديثه باستحالة تبرئة المستشرقين من المطامع لاستعمارية . ويرى أن الاستعمار رذيلة فى القوى ، والضعف رذيلة فى الضعيف ، وأن واجبنا لنحصر فى تقوية أنفسنا لنسود العالم مرة أخرى .

وليس من شأنى أن أتعرض للقسم السياسى من هذا الموضوع ، فان تقوية الممالك ، والاستعمار ، وتغلب الضعيف على القوى ، مسألة أخرى ، غير ما نكتب ونوجه الأنظار اليه . بل نرى لزاما علينا ، وقد عرض الدكتور مبارك برذيلتى الاستعمار والضعف ، أن نشير إلى رذيلة أخرى تفوقها ، وهى أن يقبل الشخص العاقل تسليم عقله وعقيدته من غير بحث لقوم نشك فى أغراضهم ، وأن يقبل هذا الشخص احترام هذه الفئة وهو لم ينتقد أعمالها ولم يجردها من ذلك الثوب المزركش الخداع من العلم المصطنع ، وانتبحر المغرض ، وإلا لرأينا كبار الكتاب منا ينشرون على الناس تلك الآراء التشكيكية والتلاعب بالعقائد مما لم يتصد له غير الأستاذ الامام المغفورله الشيخ محمد عبده والمرحوم الشيخ عبدالعزيز جاويش فى كتابه « الاسلام دين الفطرة » .

وعندى أن الاستشراق مهنة وحرفة كالطب والهندسة والمحاماة ، وهو أقرب الشبه إلى مهنة التبشير .

ولا يخفاك أن التاريخ الاسلامى ينقسم إلى قسمين : القسم الأول منه هو الاسلام من حيث هو دين ، وعناصره : القرآن ، والحديث ، وحياة سيدنا محمد عليه السلام ؛ والقسم الثانى منه ، تاريخ الدول العربية التى نشأت وعاشت فى الاسلام . وهذا القسم

(١) راجع الجزء الماضى من مجلة (المعرفة)

قد خدمه المستشرقون حقاً ، لأنه نوع من المباحث التاريخية الحرة . أما القسم الأول منه، فهو بيت القصيد ، ولا يتصدى له كل المستشرقين ، والذين يتصدون له ترى كلامهم مملوءاً بالتشكيك ، والاستنتاج الخاطىء ، والغمز واللمز ، إن لم يكيلوا التهم جزافاً ، ويرموا الدين الاسلامي بما شاءت عقائدهم الخاصة وفائدتهم المادية .

وإلا فاذا كان ذلك الولع الذي يصفه لنا الدكتور مبارك قد بلغ حد الايمان والعقيدة ، ولم يتجاوزه ـ كما أسميه ـ الاحتراف والمهنة، لرأينا واحداً فقط من مئات هؤلاء المستشرقين اعتنق الدين الاسلامي ، وإلا كان لنا أن نستنتج ـ بحق ـ أن هؤلاء كلهم لم يروا في الدين الاسلامي ، برغم اطلاعهم العميق على أسراره ، حسنة واحدة تستهوي واحداً فقط ، يعتنق هذا الدين الذي خصص له كل حياته . أفلست إذن على حق في أن أقول إنها مهنة ، ومن المهن من لا يعتقد الشخص بفائدتها الروحية ، وإن اقتنع بفائدتها المادية ؟ أما الذين يبحثون عن المبدأ الروحي فقد أسلم منهم كثيرون ، وليس منهم مستشرق واحد .

كيف تقوى أنفسنا أمام المستشرقين الذين يدخلون الشك في عقائدنا ويصورونها في كتبهم على غير حقيقتها ؟ لا أشك في أن القراء يوافقوني على أن تكون المجادلة علمية نزيهة بالتي هي أحسن، كما افعل أنا في نقدي لكتاب درمنجم ، وإن كنت أعتقد في نزاهته ، إلا أني أعتقد أن للعقيدة الشخصية أثراً في كتابته . فنرى لزاماً علينا إذن ، أن نعرض لآراء المستشرقين ، وأن نقف أمامهم موقف الند للند لا موقف الطالب للأستاذ ، فان مصادرنا ومصادرهم واحدة ، وليس لهم من ميزة غير التهذيب والتحليل ، وكثير منه خاطىء ومبني على التشكيك، والنزعة التي يراد بها استعباد العقل الشرقي ليحتقر الشرق نفسه .

أستطيع أن أعد لك كثيراً منا يتغنون بمديح المستشرقين والاشادة بذكرهم ، ولا أستطيع أن أعد غير الأستاذ الامام والمرحوم الشيخ جاويش في الرد عليهم ومجادلتهم (وقد مضى على ذلك ربع قرن تقريباً) .

فلو أننا قوينا أنفسنا بنقدهم، وأزلنا تلك الغشاوة الكاذبة التي خدرت أبصارنا وأنفسنا وتشكك الكثير منا في عقائدهم ودينهم ، لكان هذا أول حجر في بناء الانانية القومية ، والأدب الشرقي المستقل .

وأرى أنني والدكتور مبارك متفقان على وجوب الاحتراس من المباحث التي ينشرها المستشرقون ، لأنه يعترف في صراحة أنهم أدوات الاستعمار ، غير أنني أختلف وهو في نقطة جوهرية: هي أنهم يستعمرون العقول ، ويحتلون الأذهان ، ويشككون العقائد . وهذه كلها ملك أصحابها لا سلطان عليها لأحد كائناً من كان ، فاذا قوينا في أنفسنا العقيدة القومية والأنانية الوطنية فتأكد أن لن يقف في سبيلنا الى الرقي شيء مطلقاً .

إن الحضارة الأوروبية تنقسم في نظري إلى قسمين : حضارة مادية ، وحضارة أدبية . فأما الحضارة المادية كالميكانيكا والتجارة والصناعة فنحن أحوج الناس لها .

أما المدنية الأدبيـة ، كالقصص ، والمربدة فى الديانات ، والتشكيك فى العقائد ، فنحن أحوج إلى آدابنا القومية وعاداتنا الشرقية .

فنحن إلى الآن لم نركز اتجاهنا إلى ما يفيدنا حقاً ، وتشعبت مجهوداتنا فلم نظفر بغير مزيج من المدنية الأوروبية امتزج بآدابنا الشرقية، لا طعم له ولا لون، ولا يدعو إلى الاطمئنان للمستقبل الذى نسعى اليه ، وقد تمكنا من الأدب الأوروبى بالناحيـة التى يشكو منها الأوربيون ، فالى أى طريق نحن مسوقون ؟ .

لقد أخذ الزهو قوما درسوا اللغات والأدب الأوروبى فنزعوا إلى هذا النهج ، اعتزازا بما تعلموا وتركوا أنانيتهم القومية التى ليس من وسيلة غيرها للرقى المنشود .

ليست كتب المستشرقين ببعيـدة عن متناول يد أى انسان ، فليس فيها فيما يخص الدين واللغة إلا الغمز واللمز والمربدة فى العقائد ، فماذا استفـدنا منهم ، وما هو أثرهم الأدبى فى الشرق ، غير استعباد العقول ؟!

إن العمل الجدى المنتج يظهر أثره فى الثقافة العامة ، وقد رأينا أثر المستشرقين واضحا ، فهل لنا أن نفتح أعيننا لخطره على العقائد ؟ ؟

الدكتور حسين الهراوى

الابن الضال

(بقية المنشور على الصفحة ٣٠١)

« وكم حاولت الصيام عن الموسيقى ولـكنى لم أستطع ، ولا أخفى عليك : لقد تكررت زياراتها وساعدنا سهر الوالد فى المقهى . . وكان عتاب أعقبه عناق وتقبيل ، لقد نسيت زوجها ونسيت أبى ، ولم أعد أذكر إلا أنها سعاد وأن هذا العناق وذلك التقبيل من حقى ، فقد كنت أنعم بهما فى الماضى القريب !

« والآن كيف أتم حديثى ؟ لقد استبحنا كل الذنوب أو قل مثلنا مأساة أوديب الملك ! ليس الذنب ذنبى وإنما هو ذنب المقادير !

« انقطعت سعاد فجأة عن زيارتى فى غرفتى لسبب أجهله ، واستيقظ ضميرى بعد سباته ، وأصبحت لا أطيق الغرفة أو المنزل ، يخيل إلى كلما دخلتهما أننى أسمع أبى يقول « هو الابن الضال ! الابن الضال ! »

« ولهذا خنقت آمالى الطويلة العريضة ، وبحثت عن وظيفة حتى وفقت إلى وظيفة كاتب بمصلحة الأموال المقررة بالمنصورة ، وسأسافر غداً . . . اذكرنى ! » . . .

وفى اليوم التالى ودعته على المحطة وكان بادى التأثر ، وقد شد على يدى عند تحرك القطار وهو يقول « الرسائل أيها الصديق ! . . . » وانحدرت دمعتان على خده ، وهذه هى المرة الأولى التى أراه فيها يبكى . . . لقد غادرنى وكأن قلبى معه ! ؟

طبق الأصل

عبد الحميد يونس